في دار الأنصار

نزل المهاجرون في المدينة ضيوفاً على إخوانهم من الأنصار، فآثروهم على أنفسهم حتى وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿**والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾[1].

ورأى المهاجرون من إخوانهم الأنصار كل مكرمة، حتى قاسموهم الأموال وآخى الرسول ﷺ بينهم حتى قام ذلك المجتمع الفريد، مجتمع الأخوة والإسلام، وكانت هذه الأخوة «عقداً نافذاً، لا لفظاً فارغاً، وعملًا يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر»[2]. وكان جو المدينة موبوءاً تكثر فيه الحمّى، فأصابت عدداً منهم، ومرض الصّدِّيق وبلال وآخرون من صحابة رسول الله ﷺ لتغير الهواء، وتبدل الجو فكانت عائشة وأسماء تدخلان على أبيهما تعودانه وتسألانه: يا أبة، كيف تجدك؟ فيحمد الله عزّ وجلّ على نِعَمه. ثم إذا أخذته الحمّى قال:

كـل امـرىء مصبّـح فـي أهلـه والموت أدنى من شراك نعله

---

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

(٢) «فقه السيرة» للغزالي، ص١٤٠.

حتى خشيتا على أبيهما وعلى بلال، فجاءت عائشة إلى رسول الله ﷺ تخبره بحال الصّدِّيق واشتداد الحّمى فقال:

«اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا لمكة أو أشد حباً، وصحِّحها، وبارك في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة»[1].

ويتماثل أكثر الصّحابة للشفاء، وتطمئن أسماء على أبيها، ويزداد حب المهاجرين للمدينة، ثم ينصرفون لنشر الدعوة في جزيرة العرب، ودعوة الناس إلى دين الله.

كانت أسماء تجد في الحياة الجديدة متسعاً من الوقت والحرية، لأنها لم تعد ترى أعداء الله يتسلطون على الضعفاء والأبناء من المسلمين، ولكنها كانت تسمع بين الحين والحين من أخوتها حديث المنافقين وتآمر اليهود معهم.

وجلست ذات يوم مع صواحبات لها من الأنصار تسمع ما يجري في المدينة، وما كان من ترابط المهاجرين والأنصار وتآخيهم في طاعة الله. قالت إحداهن: هل سمعتن ما دار بين الأخوين عبد الرحمٰن بن عوف من المهاجرين وسعد بن الربيع من الأنصار؟

فأجابت الأخرى: هات، حدثينا بما جرى.

قالت: بعد أن آخى الرسول ﷺ بين تسعين رجلاً من المهاجرين والأنصار مضى عبد الرحمٰن بن عوف مع أخيه سعد، وعندما جلسا قال سعد لعبد الرحمٰن: إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها.

---

(١) صحيح البخاري ١/٥٨٨.

قالت أسماء: بارك الله بكم يا أنصار دين الله، وماذا كان من عبد الرحمٰن؟

قالت: أجابه عبد الرحمٰن: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟

فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو والرواح حتى صار معه مال وافر. وبعد مدة جاء يوماً إلى النبي ﷺ وبه أثر صُفرة، فقال له النبي ﷺ: «**مهيم؟**».

فقال عبد الرحمٰن: تزوجت.

قال له النبي ﷺ: «**كم سقت إليها؟**».

قال عبد الرحمٰن: نواة من ذهب[1].

فقالت النسوة: ما شاء الله، بارك الله بكم يا رجال الإسلام، وما علينا إلا أن نكون أهلاً لهذا الدين.

هكذا يبلغ الأنصار أفقاً عالياً في الإيثار، ويبلغ المهاجرون أفقاً عالياً في الوفاء والعفة، وكلاهما صدق الله وباع نفسه لله. قالت إحدى النساء: بل كان الأنصار كلهم يفعلون ذلك، فلقد جاءوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، فأجابهم: «**لا**».

فقالوا: فتكفونا المؤنة، ونشرككم في الثمرة.

قالوا: سمعنا وأطعنا، فأكبر الجميع فعل الرجل.

وتعاهد النساء على صدق الإيمان وحسن الطاعة.

---

(١) القصة وردت في صحيح البخاري، باب: إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

obeikandl.com

مجتمع الأُخوّة وكيد اليهود

قالت لها إحدى جاراتها: هل عرفت ما جرى اليوم في المسجد؟

فأجابت أسماء: خيراً إن شاء الله، هات ما عندك.

قالت الأنصارية: لقد كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، وجاء فيه:

«أنهم أمة واحدة من دون الناس، والمهاجرون من قريش على رِبْعَتهم يتعاقلون بينهم[1] وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين».

قالت أسماء: إنهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر. فهم يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم، الحمد لله الذي أذهب عنا الجاهلية، ونجانا من الضلال، وأنعم علينا بنعمة الإسلام.

قالت الأنصارية: وكذلك جاء في هذا العقد: «**أن المؤمنين لا**

---

(١) أي يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها.

obeikandl.com

يتركون مُفْرَحاً[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان[2] أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأنه ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليه، وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وأن المؤمنين يبيء[3] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط[4] مؤمناً قتلاً عن بيّنة فإنه قَوَدٌ به، إلا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وأنه لا يحل المؤمن أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد ﷺ».

قالت أسماء: هذا العقد يا أختاه لم يترك شيئاً بين المسلمين إلا حدده، ليعيشوا في وئام، ويسيروا على هدى، وليرتبطوا برابطة الإيمان.

---

(١) المُفْرَح: الذي أثقله الدين والغُرم.

(٢) أي طلب دفعاً على سبيل الظلم. والدَّسيعة: الدفع.

(٣) يبيء: يمنع ويكف.

(٤) أي قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله، فإن القاتل يقتل به.

قالت الأنصارية: إن رسول الله ﷺ يريد أن يحدد لنا قواعد هذا المجتمع، أما تكفي أيامنا المواضي السوداء، في كل يوم كنا نروع بثأر، وتنشب بين أحيائنا الحرب، والعداوة لأتفه الأسباب.

أجابتها واحدة من الأنصاريات: إنه يتعهدنا بالتزكية حتى يستل الأضغان من قلوبنا، وتحل المحبة والوئام، لنحمل دين الله إلى كل الناس.

قالت أسماء: الحمد لله الذي جعلنا مسلمات، إنها نعمة كبرى، أنقذنا بها رب العالمين من الظلمات إلى النور، فلنكن مع الرجال في الجهاد، ولنحذر فتن الشيطان يا أخوات، إنها البداية، والمنافقون يتهامسون وأعداء الله حولنا في كل مكان، فلا تركنن إحداكن إلى الدنيا والمتاع.

قالت واحدة من الأنصاريات: نعم، ألم تسمعي يا أخت بما بدأ يتحدث به اليهود، وما يضمرونه من شر.

سألتها إحداهن: هل من جديد، فما عرفنا منهم إلا المكر والدسيسة.

أجابت: لقد رفضوا أن يسلموا رغم معرفتهم أن رسول الله ﷺ حقٌّ، وأنه مرسل من عند ربه، وأنه خاتم الأنبياء، ولقد تحققوا من صفاته كما تحدثت به كتبهم.

أسماء: لكن بعضهم قد أسلم، ولم يجرفه التعصب والهوى، وعلمت أن واحداً من أحبارهم يدعى عبد اللَّه بن سلام قد أسلم وكذبهم، وأظهر حقيقتهم.

الأنصارية: وكيف كان ذلك يا أختاه؟

أسماء: لقد جاء إلى رسول الله ﷺ عندما كان في بني النجار، وألقى إليه أسئلة لا يعرف جوابها إلا نبي، ولما سمع ردوده ﷺ عليها، تحقق من نبوّته وصدقه، فآمن به وصدقه، وشهد شهادة الحق.

الأنصارية: وهل عرفت يهود بإسلامه؟

أسماء: لقد قال عبد اللَّه لرسول الله ﷺ: إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك.

الأنصارية: وماذا فعل به رسول الله ﷺ بعد أن سمع منه هذه الشهادة بقومه؟

أسماء: أرسل إلى اليهود فجاءت، ودخل عبد اللَّه بن سلام البيت حتى لا يروه، ثم سألهم النبي ﷺ قائلاً:

«**أي رجل فيكم عبد اللَّه بن سلام؟**».

فقالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال لهم وقد فاجأهم به: «**أفرأيتم إن أسلم عبد اللَّه؟**».

فقالوا: أعاذه الله من ذلك، أعاذه الله من ذلك.

ثم أمره رسول الله ﷺ أن يخرج إليهم ، فخرج وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

الأنصارية: وماذا قالوا؟ لعلهم آمنوا بعد أن رأوه يسلم وهو أعلمهم؟

أسماء: لا، إنهم ضلّوا على علم، وأنكروا عليه الإسلام، وعابوه وقالوا عنه: إنه شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه.

الأنصارية: أخزاهم الله بكفرهم، لا يهمه ما قالوا ما دام قد أرضى ربه سبحانه وتعالى واهتدى إلى الحق.

أسماء: نعم، فإنه خاطبهم برزانة قائلاً: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إلٰه إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق.

ولكن لم يكن ردهم إلا إصراراً على الكفر والمعصية، فقالوا له: كذبت. ثم مضوا.

الأنصارية: هذا دأبهم منذ عرفناهم في المدينة، أصحاب الفتن والفساد وأهل الغيّ والعدوان، يسعون بين الناس بالإثم ويفسدون ويثيرون الضغائن، ويأكلون أموال الناس بالباطل.

أسماء: أراحنا الله من شرهم. فإما الهدى والإسلام، وإما الخلاص منهم بإذن الله.

obeikandl.com

وَظَنُّوا أنّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم

ازدادت مؤامرات اليهود في المدينة، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فبدأت بنو قينقاع التحرش بالمسلمين وإيذائهم بعد انتصار المسلمين في بدر، وعندما تفاقم أمرهم، واشتد بغيهم، جمعهم رسول الله ﷺ في سوق بني قينقاع وقال:

«يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً».

قالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلقَ مثلنا.

فأنزل الله تعالى: **﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية في فئتين التقتا، فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾**[1].

وازدادت تحرشاتهم بالمسلمين، واعتدوا على امرأة مسلمة في سوقهم، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على اليهودي المعتدي

---

(١) سورة النساء، الآيتان ١٢ ـ ١٣.

فقتله، فقام اليهود وقتلوه، فعلم النبي ﷺ فسار إليهم بجند الله وحاصرهم خمس عشرة ليلة، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب واستسلموا، فجلاهم عن المدينة وأخذ أموالهم وأرضهم، وكان ذلك عقاباً من الله لهم وفرح بذلك المسلمون.

وبعد أن انتهت معركة أُحُد، وأصيب من المسلمين من أصيب، اشتدت مؤامرات اليهود والمنافقين، واتبعوا طرق الغدر حتى ظنوا أنهم يستطيعون الخلاص من المسلمين، وبدأ المسلمون يتحدثون عما أصابهم في أُحد، وعن تحرك اليهود والمنافقين والأعراب ضدهم، وقتل عدد منهم غدراً كما حدث في بئر معونة، وأصبح الأمر خطيراً، بعدما كشف يهود بني النضير عن نية الغدر، وحاولوا قتل الرسول ﷺ مع عدد من أصحابه، عندما جاءهم في ناديهم ليكلمهم ويدعوهم لإعانته في دفع الدية للرجلين الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية خطأ. وجاء خبر السماء يكشف لرسول الله ﷺ عن مكيدة يهود ونيتهم الغادرة، فنهض رسول الله ﷺ سريعاً كأنه يريد حاجة، وتوجه إلى المدينة سريعاً، وتبعه أصحابه، وعرف اليهود أن الوحي قد أخبره بما ينوون فعله من قتل رسول الله ﷺ، ثم أرسل لهم الرسول يأمرهم بالخروج من المدينة، وقال لهم :

«قد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي»، وأخبرهم عما كانوا ينوونه من الغدر، ورمي الصّخرة عليه ﷺ من فوق السطح الذي كان يجلس بجانبه، وأمهلهم عشرة أيام، ومن رئي بعد ذلك ضربت عنقه.

وعرفوا أن الأمر جد، وأن رسول الله ﷺ سيخرجهم ولا

شك، فبدأوا يتجهزون، ولكن المنافقين بقيادة عبد اللّه بن أبي بن سلول أغروهم بالبقاء، وبالمقاومة، ووعدوهم بالنصرة إن هم حاربوا رسول الله ﷺ، وعلم رسول الله ﷺ بما قرروا فنادى بالمسير إلى بني النضير، وحاصرهم مع المسلمين خمسة عشر يوماً وأمر بقطع نخيلهم حتى نزلوا على أمره وقبل بعد تدخل ابن أبي أن يخرجوا من المدينة. وأخذوا ما حملت الإبل إلا الحلقة، وغنم أموالهم ودورهم بدون قتال وأنزل الله بهم قرآناً يتلى في سورة الحشر، فخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

ودعا رسول الله ﷺ الأنصار، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم ذكر الأنصار، وما صنعوا بالمهاجرين من إكرام ومقاسمة للأموال وقال لهم: «**إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله عليَّ من بني النضير وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم**».

فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا: يا رسول الله، بل تقسمه للمهاجرين، ويكونوا في دورنا كما كانوا.

ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله.

فقال عليه الصّلاة والسلام: «**اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار**». فقسم ما أفاء الله عليه وأعطى المهاجرين ولم يُعط أحداً من الأنصار من ذلك الفيء شيئاً إلا رجلين كانا محتاجين: سهل بن حنيف، وأبا دجانة، فأعطى أبا بكر الصّدِّيق بئر حجْر، وأعطى عمر بن الخطاب بئر جرم، وأعطى عبد الرحمٰن بن عوف سُؤاله،

ويقال له مال سليم، وأعطى صهيب بن سنان الضَّراطه، وأعطى الزبير بن العوام وأبا سلمة بن عبد الأسد البُوَيلة، وأعطى غيرهم، ووسع من هذا الفيء على الناس. وفرح المسلمون بهذا النصر العظيم الذي أنعم الله به على عباده بدون قتال، فأبطل مكر اليهود والمنافقين وكسر شوكتهم، ووسعت على رسوله ﷺ وعباده المؤمنين، كان ذلك رحمة من الله ومنّةً بعدما أصابهم القرح.

وهكذا أراد رسول الله ﷺ أن يعطي المهاجرين الذين تركوا دورهم وأموالهم وهاجروا ابتغاء وجه الله، ولكي يخفّف العبء عن إخوانهم من الأنصار، فأعطى من ذلك الزبير بن العوام أرضاً فصارت أسماء تذهب إليها وتجني من ثمارها، وتنقل النوى لتصنع منه علفاً للناقة والفرس. تقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «كنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي وهي مني على ثلثي فرسخ»[1].

وتحدث المسلمون بما كان من فضل الله عزّ وجلّ عليهم بهذا الفيء الذي ظهر فيه المسلمون جسداً واحداً، فبذل الأنصار لإخوانهم بسخاء ومحبة حتى قال الله عنهم: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾. قال فيهم الصّدِّيق رضي الله عنه، بعدما رأى منهم ما رأى وكأنه يتحدث بلسان المهاجرين كلهم: «جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي:

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٩٩، باب: ما كان يعطي النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه. وفي سنن أبي داود وغيرها من كتب السنَّة والتراجم.

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا في الوطأتين فزلت
أبـوا أن يملـونـا ولـو أن أمنـا تلاقي الذي يلقون منا لملّت
فـذو المـال مـوفـور، وكـل معصـب إلى حجرات أدفأت وأظلت[1]

وهكذا أصبحت أسماء تتردد على هذه الأرض التي أقطعها رسول الله ﷺ لزوجها، وكلما رأتها تذكرت مكر يهود، فعرفت أن المكر السيِّئ لا يحيق إلا بأهله، وأن الله ناصر دينه، وخاذل للكفرة المشركين.

وقفت أسماء ذات يوم في الأرض التي أقطعها رسول الله ﷺ لزوجها الزبير من أرض بني النضير ومعها بعض أولادها، فإذا بها تسرح النظر بعيداً هنا وهناك، تنظر إلى بقايا دورهم وقلاعهم، وإلى امتداد أرضهم، فتذكر ما كانوا عليه من نعمة لم يشكروها، وما آلت إليه أمورهم بعدما عصوا الله ربهم ومكروا، ونقضوا ما عاهدوا الله عليه، وما اتفقوا عليه مع رسول الله ﷺ. ورآها ابنها عبد اللَّه وهي تسرح الطرف وتفكر، فأدرك ما بها، ولم يرد أن يقطع عليها تفكيرها، بل راح ينظر إليها وقد زادها التفكير مهابة، وما لبثت أن ابتسمت ابتسامة خفيفة وانتبهت بعدها إلى ابنها عبد اللَّه الذي بادرها بالسؤال: ما لك تبتسمين يا أماه؟ فذكرت له ما كانت تفكر فيه من حال بني النضير يوم كانوا في دورهم وأرضهم وحصونهم، وظنوا أنها مانعتهم من الله، حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فخربوا بيوتهم بأيديهم، وصارت أرضهم لله ولرسوله ﷺ بلا قتال.

---

(١) «فتوح البلدان» للبلاذري، ص ٣٤.

ولقد تذكرت يا عبد اللَّه أنني «كنت مرة في هذه الأرض التي أقطعها رسول الله ﷺ لأبيك ولأبي سلمة، فخرج الزبير مع رسول الله ﷺ، ولنا جار من اليهود، فذبح شاة، فطبخت، فوجدتُ ريحها، فدخلني ما لم يدخلني من شيء قط، وأنا حامل بابنتي خديجة فلم أصبر، فانطلقت، فدخلت على امرأة اليهودي، أقتبس منها ناراً لعلها تطعمني، وما بي من حاجة إلى النار، فلما شممت الريح ورأيته ازددت شرهاً، فأطفأته، ثم جئت ثانية أقتبس، ثم ثالثة، ثم قعدت أبكي وأدعو الله، فجاء زوج اليهودية فقال: أدخل عليكم أحد؟ قالت زوجته: العربية تقتبس ناراً، قال: فلا آكل منها أبداً أو ترسلي إليها منها، فأرسل إليَّ بقدحة ـ يعني غَرْفة ـ فلم يكن شيء في الأرض أعجب إليَّ من تلك الأكلة»[1].

ضحك عبد اللَّه وقال: يا لها من امرأة بخيلة وماكرة، لقد أدركت ما بك فأرادت أن تزيدك حرقة وعذاباً.

قالت له أسماء: نعم إنها يهودية، لا تطيق أن ترى مسلماً أو مسلمة، أرأيت ما فعل زوجها؟

ـ إنه خاف على نفسه منك وخشي أن تكون شهوتك لهذا الطعام قد أفسدته عليه، فدفع زوجته أن تغرف لك شيئاً منه.

الحمد لله، لقد أورثنا الله كل أرضهم ودورهم بعد ذلك.

---

(١) «الإصابة» ٧/ ٦٠٥.